مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد ISSN 2170-1636 / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

الكتابة التّاريخية عند المؤرّخ "أبي القاسم سعد الله" بين المنهج التّأملي والمنهج التحليلي النّقدي"

Historical Writing Of Abou al-Qasim Saad Allah between the Analytical Approach and Critical Analytical Approach"

د. سمير مزرعي Mezerai Samir صص347- 368

أستاذ محاضر ب في التاريخ الوسيط- جامعة مولود معمري- تيزي وز- (الجزائر)
Samir.mezerai@ummto.dz

تاريخ استقبال المقال: 14/09/ 2019 تاريخ المراجعة: 2019/09/16 تاريخ القبول: 2019/09/16

الملخّص: إنّ إشكالية الكتابة التاريخية لَتَكْتَسِبُ بُعداً جوهريا في مضامين إنتاجاتنا الفكرية، وتُصنِّفُ نفسها ضمن المواضيع الأكثر حَسَاسِيةً في تاريخنا بما يَكتنِفُها من تَشَاؤُمٍ وعُزُوفٍ، إذ يكون من الصعب، بَلْ من عديم الرؤية أن نُعالج هذه الإشكالية في مقال قد لا تَتَّسع صفحاته لذلك، لهذا وجّهنا اهتمامنا نحو دراسة "الكتابة التّاريخية عند المؤرّخ أبي القاسم سعد الله بين المنهج التّأملي والمنهج التحليلي النّقدي". فهذا الموضوع من شأنه أن يُثير في شيء من الوضوح حماستنا المفرطة في التعرف على "بنية الخطاب التاريخي" عند أبي القاسم سعد الله، إذ يمكن أن تتحدّد ماهيتُه بناءً على ما يقدمه من أدلّة واقعية أكثر مصداقية في الكشف عن الحقائق التاريخية، وتقديم طرح جديد في كيفية فهم وتحليل واقعنا وتراثنا الماضوي والآني، فالظاهرة الاستقرائية التي امتاز بها تجعلنا بطريقة أو بأخرى أكثر إدراكا لأهمية "الفكر التاريخي" و"الوعي بالتاريخ" في عملية تشكيل الخطاب التاريخي، بوصفهما حدّين أساسين من حدود المعرفة التاريخية وباعتبارهما عاملين متراصفين كل منهما يُكمّل الآخر.

الكلمات المفتاحية: الكتابة التارخية؛ تاريخ الجزائر؛ أبو القاسم سعد الله؛ الفكر التاريخي؛ الوعي بالتاريخ؛ المدرسة التاريخية الجزائرية؛ الأيديولوجية؛ الموضوعية.

ABSTRACT: The problem of historical writing takes on a fundamental dimension in the contents of our intellectual productions, and ranks itself among the most sensitive subjects in our history with its pessimism and reluctance, as it is difficult, but unseen to address this problem in a article. article that may not fit its pages , so we are interested in a study of "historical writing at the time of Abou al-Qasim Saad Allah between the contemplative and critical analytical

approaches. The present study topic is worth mentioning because of our extreme enthusiasm to recognize the "structure of historical discourse" at Abou al-Qasim Saad Allah, as it is based on the more realistic evidence they provide in uncovering historical facts, and provide a new way of understanding and analyzing our reality and our past and current heritage. Our awareness of the historical thought and awareness is due to his the inductive way in delivering the historical speech as both historical thought and awareness are two pillars of knowledge and complimentary reasons

Keywords: historical writing; history of Algeria; Abou al-Qasim Saad Allah; historical thought; history awareness; Algerian Historical School; Ideology; Objectivity.

مقدّمة: يقول شيخ المؤرّخين أبوالقاسم سعد الله: "عندما يتحرّر الإنسان من الدّيون يستطيع أن يفكّر بحرّية"[1]، وهي تقارب في معناها ما قاله ويل ديورانت في كتابه قصة الحضارة: "إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحرّرت في نفسه دوافع التّطلّع، وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفكّ الحوافز الطّبيعية تستنهضه للمضي قدما في طريقه إلى فهم الحياة وازدهاها"[2].

إنّ الفهم الحقيقي لعملية الكتابة التّاريخية وما يقترن بها من المناهج التّاريخية الأكاديمية والتفتّح الحضاري على الدّراسات العالمية، جعلت الإنتاج الفكري لأبي القاسم سعد الله يأخذ طابعا إستشرافيا منقطع النظير، ولا نبالغ إذا قلنا بأنّها أحدثت طفرة نوعية عند عموم الكتّاب والمؤرّخين الجزائريين، ومن بينهم أنا كدارس للتّاريخ وكقارئ لمؤّلفات أبي القاسم سعد الله وكمتأثّر بكتاباته ومناهجه، واستنادا لذلك فإنّ المدرسة التّاريخية الجزائرية وهبت نفسها وجودا وتطوّرا لقلم وكتابات الرّاحل[3]، وفيم نحن آخذين في محاولةِ فهم التغيرات التي طرأت على مسار الكتابة التاريخية عند أبي القاسم سعد الله نجد أنفسنا ملزمين لزوما كاملا مع ما يقتضيه البحث باقتباس قراءات مستفيضة من بعض الدراسات التي أجراها بنوع من التحفظ والموضوعية، إذ أن التصور الذي نملكه بادئ ذي بدء يبقى إلى غاية كتابة هذه الأسطر مجرّد قراءات ورؤى نسبية أكثر مما يكون وصفا منعزلا يتم فيه أسطرة سيرة شيخ المؤرخين.

ولكن إذا قلنا بأن أبا القاسم سعد الله- باعتباره صاحب خطاب تاريخي استثنائي- قد انتقل بالكتابة التاريخية من المنهج التّأملي إلى المنهج التحليلي النقدي

فإلى أي مدى يصدق هذا الرّأي؟ إن هذه الإشكالية قد تفرض نفسها بقوة، إذ من شأنها أن تخلق لدينا تطلعات جامحة للتعرف عن كثب عن سيرورة التّأريخ العلمي الأكاديمي عند أبي القاسم سعد الله، وربما أنّ هناك أسئلة ذات أهمية يتناسب مقدارها مع مقدار من تكشفه لنا من تجليات لواقع الكتابة التاريخية في الجزائر ونذكر منها ما يأتي:

- ما هي رؤية أبي القاسم سعد الله لواقع الكتابة التاريخية في الجزائر؟
- فيم تمثلت الجرأة الفكرية لدا أبي القاسم سعد الله؟
- كيف استطاع أبو القاسم سعد الله أن يشكّل خطابا تاريخيا خاصا به؟
- هل الضبابية التي كان يعيشها تاريخ الجزائر وقفت حاجزا أمام نجاح مهمة التّأريخ بالنسبة لأبي القاسم سعد الله؟

وما دام أن هذه الأسئلة والاستفسارات قد أخذت حيّزها من ورقات بحثنا، فإنّ ما سيتمخض عنها بصورة حتمية قد يصب في عناصر بحثية تكسبنا معرفة نسبية عن مجمل الموضوع يمكننا على ضوئها تأسيس خطاب تاريخي عن موضوع "الكتابة التّاريخية عند المؤرّخ أبي القاسم سعد الله بين المنهج التّأملي والمنهج التحليلي النّقدي"، ومن بين هذه العناصر نذكر مايلي:

1- المنهج التّاريخي ورحلة البحث عن الحقيقة.
2- الموضوعية والواقعية التّاريخية ضعف أم قوّة؟:
3- الكتابة التّاريخية في الجزائر آفاق واستشراف:
4- أبو القاسم سعد الله مدرسة التّحليل والنّقد:
5- أبو القاسم سعد الله بعيون الآخرين:

2- المنهج التّاريخي ورحلة البحث عن الحقيقة:

من خلال تتبّع مسار تطوّر الكتابة التّاريخية عند أبي القاسم سعد الله، يجد الدّارس ذلك التّمايز والتّفاضل الّذي ينفرد به عن سائر المؤرّخين الجزائريين من عدّة نواحي يمكن أن نعدّها في سطور:

أوّلا: من ناحية معالجته للمواضيع الأكثر حساسية والّتي تتطلّب من المؤرّخ الحصول على كمّ هائل من الوثائق الأرشيفية، كدليل مادي وشاهد يثمّن الدّراسة التّاريخية

ردمد 2170-1636 ISSN / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

ويعطي لها مصداقية أكبر، بما يتوافق مع أخلاقيات تشكيل الخطاب التاريخي، ويطول بنا المقام لو أردنا أن نفصّل أكثر في عزوفه عن التأريخ للمواضيع الأكثر حساسية في تاريخ الجزائر كـ"تاريخ الثّورة" مثلا، إذ يكون بمقدورنا أن نطرح العديد من الإشكاليات الأخرى الّتي تجعلنا نفهم الواقع التّاريخي بصورة أعمق وأدقّ، لذلك سنحاول أن نعطي مثالا واحد.

ففي الجزائر مازالت لا تزال رؤيتنا لذاكرتنا التاريخية محكومتين بالرّؤية التّقليدية المترسّبة، الّتي تدفعنا إلى الاعتقاد بأنّ ذلك التّاريخ ما هو إلا وَهْمٌ يكافح ليجعل من نفسه حقيقة، أو هو فعلا وجود واقعي لكنّه شرّ، وهذا ما قد يترك لدى البعض منا انطباعا بأنّ تاريخنا نقطة سوداء في حقيقة وجودنا وفي تراثنا، وعلى أنّه تاريخ ليس من صنع أبناء الأرض التي نحيا عليها، ومرد تلك الرؤى القاصرة ربما قد خُلقت من رحم ضعف الفكر التاريخي الذي تملّك عقولنا بسبب عدم قدرتنا على استنطاق ما نملكه من نصوص تاريخية، أو تعذر تثبيت النصوص الشفهية كالشهادات والاعترافات في كتابات تاريخية أكاديمية...إلخ[4].

وحسب ما يرى المؤرخ محمد مبارك الميلي، فإنّ تزييف تاريخنا قد مر بثلاثة مراحل: تمثّلت المرحلة الأولى في محاربة اللغة وتوسيع مجالات الأمية والتفقير اللذان يهددان إنسانية الإنسان، ثم تليها مرحلة تجفيف منابع الثاقفة الوطنية وانسداد أبواب التعليم في وجوه الجزائريين، والعمل على توجيه ثقافتهم وإيديولوجياتهم وفرنستهم، ثم تليها مرحلة تقزيم التاريخ الوطني وتحقيره[5] وجعله مسخا في نظر الجزائريين، وهذا كله خدمة للمشروع الإستطاني الفرنسي في توجيه التاريخ لصالحها وإبعاده عن الموضوعية العلمية الأكاديمية[6]، وعلى هذا الأساس يمكن القول بإنّ علاقتنا بتراثنا تحتاج إلى إعادة تأهيل، بمحاولة النّبش والحفر في المادة التّاريخية المفقودة أو بإعادة هيكلة وتحليل المادة المتوفّرة بين أيدينا.

كما أنّ لعامل السّلطة دور في خلق تلك الهوّة بين المجتمع الجزائري وبين تراثه وذاكرته، ذلك لأنها أنّها ظلّت تقدّم خطابا تبريريا لتسلّطها وشرعيتها بإسم الماضي، باسم الذاكرة، وفكرة "إعادة كتابة التاريخ" التي ظلت طريقها إلى نور الوجود، وكأنّ التّاريخ بات "براغماتيا" لا يخدم نفسه، بل يخدم مصالح الأفراد الّذين تسلّطوا على

مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد ISSN 2170-1636 / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

رقابنا تحت مصطلح "عنف الاعتقاد" وليس "حجّة الاقتناع"[7]، إذ نجدهم كثيرا ما يستندون رسميا إلى الذّاكرة والتّاريخ، ورسّخوا المعنى الواحد الوحيد المتأزّم ماضيا وحاضرا ألا وهو "الحزب الواحد" وعلى هذا الأساس عزا أبو القاسم سعد الله عزوفنا وتراجعنا عن كتابة تاريخ الثورة إلى عامل الخوف من التاريخ نفس[8].

إذ ما انفك ذلك الخوف يتعاظم في الأجيال المتلاحقة حتى جعل من كتابة التاريخ ضربا من ضروب الوهم ومحاولة لدفن آثار الجريمة الجماعية، أو عملية عرض مسرحي تقوم على أسطرة الماضي الثوري، أو أسطرة الشخصيات التاريخية[9]، فتمخضت عن ذلك علاقة ارتياب وشك ونفور بين الأجيال الصاعدة وتاريخه الماضوي، ونشأت لديه عزلة فكرية تجاه تراثه التاريخي في ظل غياب النخبة الجزائرية في محاولة لإنجاح عملية انبعاث حقيقي لتاريخ أكادمي مكتوب يزيل به طمي الفكر التقليدي المترسب.

ولهذا نجد أبا القاسم سعد الله متحفّظا حول موضوع كتابه تاريخ الثّورة الجزائرية، الّتي لا يزال بعض ممّن ساهم في أحداثها على قيد الحياة؛ بل منهم من أصبحوا من صنّاع القرار، أضف إلى ذلك بأنّ الفترة الرّاهنة لا يمكن فيها كتابة تاريخ موضوعي علمي، خصوصا وأنّ الكثير من صانعي الثّورة لا زالوا يحتكمون في انتقاداتهم إلى أقلام الصّحفيين والنّقاد الغير الموضوعيين، الّتي نجد أنّها بعيدة كلّ البعد عن تحصيل التّاريخ العلمي بالمعنى الّذي يمكننا من خلاله الإقلاع بخطى ثابتة نحو مستقبل أنجح، وبذلك أصبحت جرائدنا فضاءً لتبادل الاتّهامات والانتقادات الّتي لا تمتّ للتّاريخ بصلة[10].

لهذا صرّح أبو القاسم سعد الله في حوار إلى جريدة الحقائق الأسبوعية، حول تحفّظه عن كتابة تاريخ الثّورة بقوله: "التاريخ يجب أن يكتب من مسافة زمنية معقولة أي بعد انقراض الجيل الذي صنع أحداثه، وكلما ابتعدت المسافة كلما توفر التفسير الموضوعي ومعالجة الأحداث ببرودة علمية. أما إذا اقتربت المسافة فإن حرارة العاطفة هي التي ستطغى وتعطي للأحداث تفسيرا غير موضوعي يكون عادة خاضعا لنزوات الأشخاص الّذين صنعوا الأحداث، فهم جميعا يعتقدون أنهم هم صانعوا

الحدث وأن الآخرين غائبون عنه أو ثانويون فيه، ومن ثم كنت أعتقد أن تاريخ الثورة ما يزال غير جاهز لتناوله في الكتابات التاريخية الأكاديمية"[11].

إنّ أهمّ ما يستوقفنا ونحن على ما نحن عليه من التّقصّي والبحث حول المنهج التّاريخي لأبي القاسم سعد الله، هي تلك الميزة الّتي انفرد بها عن باقي الكتّاب والمؤرّخين، ونقصد بذلك في هذا المقام أخلاقيات المؤرّخ الباحث عن الحقيقة، والّتي تتلخّص في إحترام مشاعر وأحاسيس الغير، دون الطّعن فيهم أو اتّهامهم اتّهامات قد تدخلنا في دوامة لا متناهية من الصّراعات والإنتقادات -كما ذكرنا سابقا-، والقائمة أساسا على الاختلافات الإيديولوجيات أو إختلاف الإنتماءات المذهبية أو الحزبية للمؤرّخون[12]، والّتي قد تضرّ وبطريقة مباشرة بثالوث الدّولة "الحزب والجيش والدّولة"[13]، وعلى هذا الأساس يفقد التّاريخ مضمونه العلمي ويصبح تاريخا تحيّزيا براغماتيا لا يخدم نفسه، بل يخدم الأشخاص والنّظام.

ثانيا: إنّ المواضيع الّتي تناولها أبو القاسم سعد الله خصوصا في كتاب "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" قد لا نجدها مرتبطة ببعضها البعض من ناحية التّراتبية الزّمنية الكرونولوجية، ولا من ناحية تراتبية الجوانب المُعَالجة في الفصل الواحد، كأن يبدأ بالمواضيع السّياسية ثمّ الاقتصادية ثم الفكرية ...إلخ، فهو يحاول التّركيز على المواضيع الّتي أصبحت المادة الأرشيفية والوثائقية متوفرة بما فيه الكفاية لتتيح له مهمة التأريخ لها ولأول مرة كونها لم تناقش من قبل، وغالبا ما نجده يتعامل بهذا المنهج الفريد كمناقشة أراء شارل أندري جوليان، وآراء حمدان خوجة، وكتابات أبي راس النّاصري، أي "تاريخ الشّخصيات التّاريخية الجزائرية"، ثم إن دواعي البحث التاريخي عنده تولدت أساسا عن حب المعرفة والتطلع قدما للإتيان بالجديد إذ أنه كان يبغض السير على خطى الآخرين، فقد كان أحب شيء إليه هو الكشف عن المجهول والمستور[14].

وليس من الغريب أن نستشعر فن وجمال أسلوب الكتابة عند أبي القاسم سعد الله، فيم هو آخذ في ملاطفة النصوص التاريخية ونقعها في بلاغة ونعومة الأدب، ليكشف لنا عن تاريخ مستتر ظل حينا من الزمن حبيس رفوف المكتبات والخزانات ودور الأرشيف، بعد أن خلع عليه الدهر كثيرا من نصوصه الأصلية القيمة، وإذا كان

بوسعنا أن نصف ميراث أبي القاسم سعد الله، جاز لنا أن نقول بأن إنتاجه كان منقطع النظير كما ونوعا، وبلغ في تعقيده وإدهاشه مبلغ نظائره من المؤرخين العالميين أمثال ويل ديوانت، فرنان بروديل، محمد المنوني، عبد الهادي التازي...وغيرهم، فما أمكننا جمعه من مؤلفات وكتب قد لا يعبر سوى على كونه رائد من رواد المدرسة الجزائرية، فكانت له حوالي: 43 محاضرة في المؤتمرات الدولية والوطنية، 6 كتب محققة، 3 كتب مترجمة، 6 كتب تاريخية كل كتاب مقسم إلى أجزاء، 5 كتب أعلام ودراسات، 9 مؤلفات ضمن كتب إبداعات وتأملات، 24 مراجعة كتب، 16 دراسة على شكل ترجمات نشرت في مختلف المجلات، 78 بحثا في مختلف القضايا التاريخية، 71 مقالا، 19 تصدير كتب[15].

ثالثا: الإعتماد على طريقة "التّأريخ المركّز"، من خلال معالجة "المقتطفات الأساسية من التّاريخ"؛ فليس كلّ موضوع توفّرت لدينا مادته الأرشيفية أوالمصادر المادية يمكن أن يؤرّخ، بل هناك مجموعة من التّفصيلات الدّقيقة الّتي تكون أساسية لاستكمال الكتابة التّاريخية، وإلاّ كانت كتابة نثرية لغوية تمثل وصفا منعزلا أكثر ممّا تكون كتابة تاريخية بحتة، وعلى هذا الأساس ادّخر أبو القاسم سعد الله جهده في تناول المواضيع الأكثر توفّرا للمادّة التّاريخية، بالقدر الكافي الّذي يجعل به الخطاب التاريخي مرنا ديناميكيا قابلا للنّقاش والاستقراء وإعادة فهمه وصياغته بطريقة أخرى، وبالقدرة العقلية التي يمتلكها أي جيل من الأجيال.

3- الموضوعية والواقعية التّاريخية ضعف أم قوّة؟: ترسّخت لدينا فكرة ونحن نحاول أن نتصفّح ونحلّل ونتسقرئ كتب النّخبة سواء كانت الجزائرية أو الفرنسية، هي أنّ تاريخ الجزائر المعاصر قد تميّز في كلّ مراحله الاستعمارية بذلك التّجاذب والتّداخل بين التّاريخ الفرنسي والتّاريخ الجزائري، وكأنّه بات جُزءً لا يتجزّأ منه، وهذه النّظرة كثيرا ما جعلتنا نطرح مجموعة من التّساؤلات حول طبيعة تلك العلاقة التي قلما نصفها بـ"تبعية التّأريخ"، إذ نجد أنّ أبا القاسم سعد الله من خلال فهمه لطبيعة العلاقة البينية، سواء من شّقها الكلاسيكي القديم أو من شقّها الرّومانتيكي الجديد يعتقد بأنّ الفضل يعود إلى فرنسا في حفظ بعض التراث المكتوب للجزائر، وذلك من خلال جمعهم لبعض المخطوطات والآثار المنقوشة ودراستها وترقيمها

مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد 2170-1636 EISSN 2600–6324 / ISSN / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

وفهرستها بل ونشر العديد من المؤلّفات الّتي كانت مخزّنة في الخزانات والمساجد والزّوايا، ووهبت لها الحياة مجدّدا وأحيت الوجود التّاريخي ممّا لا حياة فيه "أي الوثائق" ، إلاّ أنها من ناحية ثانية عملت على تشويه تاريخ الجزائر من خلال إيعاز مهمّة كتابته إلى بعض العسكريين كمرحلة أولى، ثمّ كُلّف بعض المختصّين من المؤرّخين والهوّاة بتغيير أنماط التّأريخ لتغيّب الكثير من الحقائق لأغراض استعمارية.

ففي المرحلة الأولى الّتي حدّدها المختصّون ومن بينهم أبو القاسم سعد الله بين الفترة (1830-1880) والّتي اصطلح عليها بفترة "المؤرّخين العسكريين"[16] ظهر مجموعة من جامعي تراث الجزائر المكتوب وإعادة تصنيفه مثل: البارون دوسلان (De Slane) الّذي ترجم "تاريخ ابن خلدون" و"جغرافية البكري"، وفورنيل(Fournel) الّذي كتب كتاب "تاريخ شمال إفريقيا الشّمالية في العصور الوسطى" ، ولاكروا(Delacroix) الّذي نشر دراسات عن الإستعمار والإدارة الرّومانية في إفريقيا، وبيربرجر (Berbrugger) الّذي نشر عدّة دراسات في المجلّة الإفريقية (la revue africain).

أمّا المرحلة الثّانية فإنّها تبدأ ما بين (1880-1954) وتسمّى بعهد "المؤرّخين المختصّين"، وتبدأ هذه المرحلة بتأسيس (المدارس العليا) في الجزائر بتاريخ 1880، والّتي ستتحوّل فيما بعد بتاريخ 1909 إلى جامعة الجزائر، فقد استُقبل في هذه المرحلة مجموعة من الباحثين بحفاوة وتحفيزات مادية، ومن أهمّ الكتّاب في هذه المرحلة نجد مثلا: ستيفن غزال (Stevens Gazel) الّذي تخصّص في دراسة تاريخ شمال إفريقيا، وشار أندري جوليان (Charle andré julien) صاحب كتاب "تاريخ شمال إفريقيا" وروني باسي (René Basset) الّذي اختصّ بالدّراسات اللّغوية واللّهجات المحلّية، وإدمان دوتي (Edmond Doutté) الّذي كرّس جهده للأبحاث الاجتماعية[17].

بالإضافة إلى هذه المشاركة وهذه الأبحاث الّتي تفيدنا كباحثين في تاريخ الجزائر، وتخدمنا بطريقة أو بأخرى في إعادة كتابته وتنقيحه، عمل الاستعمار الفرنسي على استغلال أبناء الجزائر، بحكم أنّهم أدرى باللّغة العربية وبالواقع الإجتماعي والنّفسي للمجتمع الجزائري، ولذلك كرّست جهودهم في جمع المخطوطات والكتب القيّمة، تماما كما حدث مع بيربرجر (Berbrugger) والّذي حصل على حوالي

ردمد 2170-1636 Depot Légal 1156 -2014 :الإيداع القانوني / EISSN 2600–6324 / ISSN

800 مخطوط أثناء مصاحبته للجيش الفرنسي الّذي احتل قسنطينة سنة 1837م، أو بعض المخطوطات الّتي تستّر عليها البارون دوسلان(De Slane) بعدما تحصل عليها من مكتبة سيدي حمودة من عائلة ابن الفقون، والّتي تزيد كتبها عن 2500 مجلد، ومكتبة باش تازي الّتي تحتوي على 500 مجلد[18].

أمّا روني باسي(René basset) فقد آزرته السّلطات الفرنسية في الحصول والاستفادة من الكتب والمخطوطات بزوايا "عين ماضي" و"تماسين" و"ورقلة" و"الهامل"، بعد أن توسّط له الولي العام تيرمان (Tirman) في هذا الشّأن مع رئيس الطّريقة التّيجانية (سي محمّد الصّغير) بتاريخ 26 فيفري 1885م[19] كما قامت إدارة الإستعمار بكتابة ونشر أو ترجمة العديد من المؤلّفات إلى الفرنسية مثل كتاب "رحلة عبد القادر بن أبي بكر التواتي بن هيبة الله"، والّذي كُلّف بكتابته من قبل أحد العسكريين الفرنسيين (Du Coudet) المعروف بإسم (حجّي عبد الحميد باي)، حيث طلب منه تدوين أبجدية التوارق، وتدوين أهم قادة الأهالي بتلك المناطق، وذلك طبعا بغرض معرفة الأحوال الاجتماعية للمجتمع الصّحرواي، وقد لقي دعما ماديا من قبل ضابط المكتب العربي بقسنطينة (Boissonet) المعروف بإسم القبطان بوسنة[20].

لم يكتف الفرنسيون بتشجيع الدّراسات الإسلامية فقط، بل استغلوا بعض النخب الوطنية الجزائرية في حفظ تراثنا التاريخي، فقد قام محمّد بن أبي شنب بنشر رحلتي ابن عمّار والورتلاني وتحقيق كتب قديمة مثل:"عنوان الدّراية" للغبريني، و"البستان" لابن مريم التّلمساني، كما قام محمّد بن أبي القاسم الحفناوي بوضع كتاب تراجم سمّاه بـ"تعريف الخلف برجال السّلف"، كما اهتموا بما ألّفه الجزائريون في هذا المجال من كتب وغيرها وقاموا بترجمتها من بينها "مذكرّات حمدان خوجة"، و"مذكّرات الجاح أحمد باي"، و"مذكّرات بوضربة"، و"تاريخ بني زيان" للتّنسي[21].

من خلال الرّجوع إلى الفترة الممتدّة ما بين 1905 و1937 يمكننا رصد مختلف أعمال حفظ التراث المكتوب، الذي كان من الممكن أن تضيع ورقاته تحت طائلة الهجر والنسيان، ففي هذه الفترة ترجمت المصادر الّتي تتناول تاريخ تلمسان من قبل تلامذة المدرسة الإسلامية، فكتاب "بغية الرّواد" ليحي بن خلدون بجزأيه الّذي نُسبت ترجمته إلى المستشرق الفرنسي ألفرد بال (Alfred Bel) هو في حقيقة الأمر ترجم من

ردمد 2170-1636 ISSN / EISSN 2600–6324 / الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

قبل غوثي بوعلي (1874-1932)، كما أنّ كتاب "روضة النّسرين" لابن الأحمر قد ترجم من قبل ستّة تلاميذ بنفس المدرسة بالتّعاون مع جورج مارسي(Georges marcais) سنة 1917م[22].

إن فهم ذلك الواقع الماضوي الاستعماري كان أمرا في غاية البساطة، غير أن ظاهرة الهجران التاريخي ربما لم تولد فجأة من العدم، بل كانت متأتية من تراكمات صاغها لنا التاريخ وترجمها لنا في ممارسات نراها ماثلة أمامنا ونعجز عن تغييرها، ولهذا نجد أبا القاسم سعد الله خصّ في أبحاثه ودراساته المجتمع الجزائري في الفترة الحديثة، الّذي كان يعيش بين القرنين السادس عشر والتّاسع عشر في ظلام الجهل والتّخلّف ناتجة أساسا عن الحكم العثماني، فعرفاناً من غير نكرانٍ يتكلّم الرّجل بتواضع عن ويلات ذلك العهد الّذي يعتقد أنّه كان سببا -كيف ما كان- في زعزعة وعدم استقرار الجزائر، نتيجة طبيعة الحكم المختلط بين "الحكم الجمهوري العسكري المغلق"[23].

ولمّا كانت الموارد الطّبيعة والكفاءات البشرية تبحث عن بعضها البعض لتلقّح فكرة انتزاع التقدّم والرّقي الحضاري من حكّام وبشوات وأغوات ودايات الجزائر بسلاح العلم وتشييد المدارس والمعاهد القرآنية والزّوايا، لم تلق السّلطة العثمانية بالاً لآهات وصراخ المحكومين، والأغرب من هذا أنها لم تعرقل طريق العلم والتّدريس، بل وقفت إزاءه موقف الحياد[24]، فأبو القاسم سعد الله يستثني في بعض الجوانب دور العثمانيين في تخلّف شعب الجزائر، خصوصا إذا ما تعلّق الأمر بالتّعليم أو نمطية الحكم، بدعوى أنّ المجتمع تجاهل العلم وقت توافره ومجانيته[25] وحتّى الجزائري في ذلك الوقت كان يسمّى "عثمانيا"، ليس بالمعنى الّذي نفرّق به بين جنس وآخر، وإنّما كونهم جميعا كانوا من رعايا السّلطان والحاكم، ليس باشتراك في الدّين أو المذهب الواحد، وإنّما بالاشتراك في بناء مختلف جوانب نظام الدولة[26].

وبناءً على هذه التقارير وهذا العرض الأوّلي لطبيعة الكتابة التّاريخية الفرنسية في الجزائر، فإنّ أبا القاسم سعد الله مع ذكره للجوانب السّلبية للوجود الإستعماري في الجزائر، لم ينكر إيجابياته وفضل الكتاب الفرنسيين في جمع المصادر التّاريخية وترقيمها وتوثيقها، بل وحتّى نشرها في الكثير من الأحيان مع استخدام أحسن

التّقنيات، وتحقيق الكثير من المصادر التّاريخية والرّحلات، واستعمالهم للمناهج التّاريخية الحديثة الّتي تعتمد على النّقد والشّك والتّحفّظ في اعتماد الرّوايات والأحداث التّاريخية[27].

4- الكتابة التّاريخية في الجزائر آفاق واستشراف: إنّ الظاهرة الاستقرائية الّتي تمتّع به أبو القاسم سعد الله جعلته يخرج من دائرة النّظرة التّقليدية التّصورية لتاريخ الجزائر، الّتي تستجيب لعقلية الجزائري المستقيلة كما يصفها الجابري، وينتقل بها إلى صفوة الفكر التّاريخي، ومن ثمّ تغيير نمط الكتابة التّاريخية وتغيير طبيعة الخطاب الموجّه لعوام القرّاء، مع مراعاة مستوى وعقلية المستقبِل الّذي يتلقّى الخطاب، ومردّ هذا الفهم العميق في تحديد أزمة بناء الفكر التّاريخي الجزائري، جاء نتيجة معالجاته للعديد من الإشكاليات الّتي غفل عنها غيره من المؤرّخين، ومن بينها موضوع "إشكالية الكتابة التّاريخية"[28]، وموضوع "الاستعمار والثّقافة الشّعبية في الجزائر"[29]، ولذلك يسود بيننا الاعتقاد أنّ أبا القاسم سعد الله استطاع منهجيا ومعلوملتيا وتاريخيا تحديد المشكل وذلك التّغييب الّذي تعاني منه النّخب الجزائرية، سواء نتيجة غياب الفكر التّاريخي أو نتيجة عدم أهلية مستواه العقلي، وبالتّالي يكون فاقدا للوعي بالتّاريخ الّذي هو شرط الانتقال من مرحلة الضّعف إلى مرحلة القوّة، تماما كالصّبي الّذي يحتاجه لينتقل إلى مرحلة المراهقة ثمّ إلى مراحل أخرى أكثر تطوّرا.

وبعد الكثير من القراءات والتّحليلات والتّجليات، كانت لنا وقفة تأمّلية حول كيفية قراءة أبي القاسم سعد الله للتّاريخ وكيفية تعامله معه وماهية كتاباته أصلا؟ إنّه يرى بأنّنا شعب تغلب عليه الطّبيعة السّلطوية، أي أنّنا مجبولون على حبّ التّسلّط كما يرى ذلك عبد الرّحمان بن خلدون وهذه طبيعة في أنفسنا، غير أنّ التّاريخ لا يقتصر على الجوانب السّياسية والعسكرية والحروب والمعارك والانتصارات الّتي نفني حبر أقلامنا في التّبجّح بها؛ بل وحتّى إعطائها صفة القداسة، بينما نسينا أنّ تاريخ الحضارة كما يقول ويل ديورانت في كتابه "قصّة الحضارة" بأنّها نهر ذو ضفّتين وهو أشبه بنهر يمتلئ أحيانا بوقائع وأحداث الحروب والدّماء والقتلى، فيما أنّ الحضارة في حقيقتها تشتل أحداثا أخرى تترسب على ضفّتي النّهر فهناك شعوبا تمارس الحبّ ويتزوّجون ويبنون البيوت، ويتغنّون بالأغاني وينظمون الشّعر، وينحتون

التّماثيل، فغالبا ما نميل نحن إلى تسجيل الجانب المظلم للتّاريخ، وننسى الجوانب المضيئة الّتي تفيدنا اجتماعيا وحضاريا، والحضارة في مفهومها هو تاريخ ما حدث على ضفّتي النّهر.

إذن ربّما قد تتباين وتتضارب أراء المفكّرين والمؤرّخين حول أسباب تخلّف الكتابة التّاريخية في الجزائر[30]، فالمتتبّع لتاريخ الحضارات عبر العالم، يمكن أن يجد ذلك الفرق بين عقلية القارئ المتخلّف القزم وعقلية القارئ العظيم، الّذي ترقى نفسيته إلى أعلى مستويات الفكر من خلال تحديد ميولاته الثّقافية والفكرية الّتي تنصب حول دراسة تاريخ الفنون والآداب وتاريخ العلوم وتطوّرها، وخلق أرضية صلبة مثلا لتاريخ الفيزياء عند الفزيائيين، وتاريخ الطّب والتّطبيب بالنّسبة للأطبّاء، وتاريخ الفلسفة عند الفلاسفة، وهذا ما توصّل إليه أبو القاسم سعد الله حين تناول في كتابه "تاريخ الجزائر الثّقافي" بعدما تناول تاريخ العلوم بشّقّيه الشّرعية كالتّفسير والقراءات والحديث والفقه، والعلوم العقلية كعلم الكلام والتّصوّف والمنطق، وعلوم اللّغة كالبيان والنّثر والمعاني والعروض وما تعلّق بها من شعر وعروض وخطابة وقصص ومقامات، ثمّ أفرد فصلا يتكلّم فيه عن العلوم والفنون الحساب والفلك والطّب والجراحة والصّيدلة، والموسيقى والغناء والعمارة والخطّ والرّسم[31].

فالاحتكاك بتاريخ الفنون كالرّسم والنّحت والإبداعات الحضارية وتاريخ الآداب، كتطّور فن الرّواية والقصّة والمسرح يجعل عقلية المجتمع أكثر حساسية وأكثر إرهافا، وتولد له رؤية شمولية عن أهمّية التّاريخ في فهم وجوده وكيانه وحقيقته، وتدفعه للمضيّ قُدما في نحت وتشكيل حضارته بتلك المترسّبات القبلية الّتي تجعل من التّاريخ مرنا وتنفي عنه صفة الجمود، على عكس المجتمعات الّتي تهتمّ بتاريخ السياسية والحروب الدّموية، إذ من شأنها أن تُخلَقَ لديها أفكار سلبية تشاؤمية ورؤية قاتمة لمادة التّاريخ، وترسّخ في فكره قناعات أكثر ما نصفها بـ"همجية التّاريخ".

ولو نظرنا إلى أبسط الخطابات التاريخية شيوعا، لأوشكنا أن نرى أفكارنا الذاتية تتشكل أمامنا وتُتَرجمُ في أسطر على الورق بنوع من الغرور وحب الذّات، بحيث أنها لا تعبر عن حقائق موضوعية بالقدر الكافي الذي يجب أن تكون عليه لأنها تمثل وصفا تاريخيا منعزلا لا غير، ولأنّنا ربطنا المعرفة التاريخية بأنفسنا بحيث يصبح

"أنا" كل واحد من المؤرخين مركز كل تلك المعرفة ويربط بها الأحداث التاريخية إنطلاقا من القوى الفكرية والإدراكية التي يمتلكها، في حين أننا نكون في أمس الحاجة وقتئذ لإنتاج تاريخ واقعي يمكن من خلاله أن نتعرف على أنفسنا وذواتنا في تلك الماضوية التي كثيرا ما جهلناها.

إنّ هذا المشكل قد يُخلَقُ فجأة في ظروف معينة بين حدين معرفيين هما "نسبية المعرفة ومحدودية الفهم" إذ أن التاريخ الذي نكتبه عادة ما نراه حقيقة مطلقة وحتميا علينا تصديقه والاعتراف به، في حين نكاد نجهل أشاء أخرى عن أنفسنا مفادها أن تلك التأويلات والتفسيرات التي توصّلنا إليها تَـوّاً لا تعبر في حقيقة الأمر سوى عن معرفتنا النسبية وفهمنا المحدود القاصر، ولا تعبر عن تصور عام شمولي بالمعنى الذي يمكنه أن يكون تاريخا، إن تاريخنا على ضوء هذه القراءة يبقى دائما مجرد آراء وأفكار قابلة للتصحيح والتأويل مرة أخرى؛ بالطبع هذا ما يمكن أن نسميه بـ"الخطاب التاريخي النسبي".

فإمكانية التحكم في التاريخ وفهمه متوقف بدرجة عالية على مدى قوة إدراكنا لمختلف الظواهر والأحداث التي تحيط بنا وإمكانية فهمها وتحليلها وفق مناهج علمية أكاديمية، ومتى أمكن ذلك جاز لنا أن نصف أنفسنا بالعظماء، فإذا كان ثبوت الوجود مرتبط بممارسة عملية التفكير عند ديكارت، فإن تقييم تراثنا وتاريخنا عند أبي القاسم سعد الله مرتبط بطبيعة أنفسنا وذواتنا وطبيعة تفكيرنا، وحسب رؤيته فإنّ الأمة العظيمة هي التي تلد المؤرخ العظيم وإنّ الأمة القزمة هي التي تلد المؤرخ القزم، فبدل أن يستند الفرد إلى إلى قواه العقلية لخلق فكر تاريخي خاص به، نجده لا يُجيد سوى تحطيم أبطاله بفأسه وتمزيق كيانه بيده ولسانه[32] ولا يقوى على تحرير نفسه من تبعيته للآخر وإقالة فكره.

وهذه الرؤية الإنهزامية لواقعنا التاريخي ما انفكت تشكل لنا عقدة نراها ماثلة أمامنا في صور ومظاهر شتى، ويعني أبي القاسم سعد الله بتلك العقدة عقدة من نحن: عظماء أم أقزام؟ وشخصياتنا أهم أبطال أم مجرّد حيوانات بشرية؟ وأحداثنا هل هي عملاقة أم مجرّد صدى لأقدام الآخرين؟ وضميرنا هل هو ضمير تاريخي بحيث يدرك أنّ ما نفعله ونقوله محفوظ ويجب أن يدوّن ثمّ يبعث أم هو ضمير آني لا يحسّ

مجلة عصور الجديدة- مصنفة ج- المجلد 9- العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد ISSN 2170-1636 / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

إلاّ كما يحسّ به ضمير المرتزق حين يتقاضى أجرا على فعل أدّاه؟ فمتى أمكن لنا أن نحل هذه العقدة أصبح بمقدرونا أن نحل مشاكل تاريخنا الأخرى[33].

5- أبو القاسم سعد الله مدرسة التّحليل والنّقد: لعلّ طابع الشّمولية الذي يمكن للمختصّين في علم التّاريخ أن يلتمسوه في كتابات أبي القسام سعد الله، هو الّذي جعل إنتاجه المكتوب يكون أكثر ملامسة للواقع التّاريخي للجزائر، وأكثر دقة من حيث الجانب التحليلي النقدي، ومردّ ذلك فيما يبدو فهمه العميق لعملية بناء "المعرفة التّاريخية" النّاتجة أصلا عن الإنتاج المادي السّابق، أضف إلى ذلك أنّه وسّع اهتماماته بمختلف تخصّصات التّاريخ سواء تلك التي قام بدراستها مثل: "تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر" و"تاريخ المغرب العربي الحديث والمعاصر" و"تاريخ النّهضة الاسلامية الحديثة" و"تاريخ الدّولة العثمانية منذ 1300م"[34]، أو التّخصّصات التّاريخية الّتي احتكّ بها ودرّسها في المدارس الأكاديمية والجامعات الجزائرية منذ سنة 1996، والّتي تقدّر ب 22 مادة أهمّها: "تاريخ أوروبا الحديث، تاريخ أوروبا في عصر النّهضة، الحركات الاستقلالية والتّحرّر الوطني في العالم الإسلامي الحديث"، كما أسندت إليه مهام تدريس تخصّ "تاريخ الحضارة الغربية وتاريخ الشّرق الأدنى" بجامعة أوكلير(eau claire) ولاية ويسكنسن(Wisconsin) بالولايات المتّحدة الأمريكية[35].

من كل ما سبق يمكن لنا أن نبني تصورا بالغ الأهمية عن التّراكم المعرفي الّذي كان أبو القاسم سعد الله يحظى به، إذ كان بإماكنه تطعيم مادته التّاريخية بالعديد من القراءات الجديدة والمعالجات العميقة للمفاهيم التّاريخية، وتنسيق الأحداث الّتي كان يعيشها العالم وقتئذ، وبعدئذ لا تنفك تلك الحياة الفكرية النّاتجة عن طمي المعرفة التّاريخية المترسّبة لديه تدفعه للمضيّ قُدما إلى فهم الواقع التّاريخي بإيجابياته وسلبياته، وإخراج الإنتاج التّاريخي من ضبابيته وتقديمه في حلّة جديدة تتّسم بالعقلانية، إذ يكون بمقدور القارئ استشعار موافقتها للمنطق والمعقولية، بحيث يحسّ أنّ ما يسترسل في قراءته هو الأقرب "للحقيقة التّاريخية". فيتعايش لحظتها مع تلك المواضيع وكأنّها تلامس أحاسيسه وشعوره، أو أنّه بإمكانه أن يَكتُب مثل ذلك ببساطة لواقعية الطّرح وسلامته.

ردمد ISSN 2170-1636 / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

من أهمّ المميّزات الّتي اتّسمت بها الكتابة التّاريخية عند أبي القاسم سعد الله هو اعتماده على فلسفة التّاريخ، أو دراسة التّاريخ كما هو في التّاريخ " the past as it in history" أي الماضي كما يفسر فلسفيا وليس التاريخ كما هو للتّاريخ " the past as it for history" أي الماضي كما يراه المؤرخ[36]، إذ أنّه اعتمد في ذلك على دراسة الكثير من الآراء والأفكار الّتي كان يروّج لها الاستعمار الفرنسي ويحاول بعثها على أيدي المستشرقين الفرنسين[37]، فكانت معالجاته تستند إلى النظرة الشمولية التي تحتكم إلى التحليل والنقد وفق مجموعة من الفرضيات وتقديم تأويلات مدعّمة بأدلّة وحجج وبراهين تاريخية، وإنّ هذا المنهج المستحدث يؤدّي في أسمى غاياته إلى تغيير ضروب الفكر وكشف الستار عن كثير مما نجهل، وبه يمكن تحدي همجية وسطوة الفكر الغربي المسلّح بالتّكامل والتّراكم المعرفي، وبذلك يصبح التاريخ هو "الخليل الأعظم للحكمة" كما يقول دافيد هيوم[38].

أضف إلى ذلك فإنّ الصّراع بين أنصار فلسفة التّاريخ التّأمّلية وفلسفة التّاريخ النّقدية الّتي بدأت تظهر بعد الحربين العالميتين الأوّلى والثّانية، أثّر وبشكل كبير على تحسين نمط الكتابة عند أبي القاسم سعد الله، ففي كتابه "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" نجد أنّه ينتقد الكثير من الآراء الفرنسية المترسّبة والعالقة بالتّراث المتأزّم الّذي يعود إلى البدايات الأولى للاستعمار، كانتقاده لعدّة مفاهيم رُوّج لها من قِبَلِ الكتاب الفرنسيين بغية تغييب حقيقة وكيان الوجود العربي الجزائري كمفهوم: "الاستعمار التّركي" و"العاطفة الذّاتية" و"مصطلح القومية والوطنية" و"الوحدة الجزائرية" الّتي حاول شارل أندري جولينا أن يجعل منها مفاهيما تصب في معنى الوحدة الانفصالية عن الحضارة العربية الإسلامية، بينما كانت تعبر في حقيقة الأمر عن نضج الضمير القومي للمجتمع الجزائري التي سيتحول فيما بعد إلى حركة إنفصالية عن فرنسا الأجنبية[39].

لذلك فإنّ مناهج التّحليل والنّقد بالإضافة إلى المناهج التّاريخية الأخرى الّتي طّبقها المؤرّخ أبو القاسم سعد الله "كالمنهج السّردي الوصفي" و"منهج دراسة الحالة" و"المنهج الإستنباطي والإستقرائي" و"المنهج الاستردادي" الّذي يعيد بها تنظيم تراتبية الأحداث وربط الماضي بالحاضر، لم تكن كافية من أجل إحداث تلك القفزة العلمية

والفكرية في نمط الكتابة التّاريخية، بل ما نجده جديدا وجديرا بالذّكر هو تطبيقه تقنيات بحث كثيرا ما يغفل عنها المؤرّخون الآخرون، ولا نكاد نلمسها في المواضيع ذات الطّابع الواحد،كالجانب السياسي أو الاجتماعي أو الفنّي أو الفكري، ونعني ها هنا فكرة "أبعاد التّاريخ"، حيث أنّه لا يعطي للجوانب المفردة أهمّية دون أن يدرسها ويؤصّل لها تاريخيا من زوايا وجوانب عدة، إذ لا نجد ذلك التعتيم إذا ما حاولنا فهم وربط ظوهر اجتماعية بظواهر أخرى لا نكون قد فكرنا فيها أصلا، وبقدر ما نعتقد أن هذا الأسلوب تدشين لعهد جديد لمناهج المدرسة التاريخية الجزائرية، بقدر ما يجعلنا نتجافى كثيرا من الاعتقادات الخاطئة والأحكام المسبقة التي لا تخدم التاريخ، ويجعلنا أكثر إدراكا لكينونة كيفية التأريخ.

وعادة ما نلاحظ أنّ الإسترسالات الّتي يقوم بها في مقدّمات عناصر بحوثه تحمل أبعادا وتحليلات إجتماعية وشروحات دقيقة بما تقدّمه لنا من رؤى وتصوّرات شمولية منقطعة النظير[40] إذ بوسعه أن يبدي الكثير من الآراء والقراءات الّتي عادة ما تنتهي بالتّحليل أو بالتّحليل والنّقد معا، فمثلا عندما يتناول موضوع الاستعمار الفرنسي للجزائر فإنّه لا يحاول تقديم تفصيل لواقع الإستعمار آنذاك، وإنّما ينتهج منهج يخالف معظم المؤرّخين كما يذكر أبو القاسم سعد الله نفسه، فيحاول دراسة الأوضاع الدّاخلية للجزائر في تلك الفترة ويسلّط الضّوء على الواقع الإجتماعي والسياسي المزري الّذي عاشته مختلف الطّبقات، وكأنّه يريد أن يقول بأنّ الإستعمار كان استعمارا داخليا قبل أن يكون خارجيا، ناتجا أساسا عن شيوع ظاهرة الإحساس الجماعي الإنهزامي عند المجتمع الجزائري الذي يعترف بقابلية الإستعمار وعدم أهلية لقيادة نفسه بنفسه.

وبالنظر إلى طبيعتنا البشرية كوننا أداة لإنتاج الأفكار؛ فإن ما يغلب علينا بصفة حتمية هو نسبية الإحساس والإدراك، لذلك عندما نؤرّخ لأنفسنا غالبا من نتجاهل في معظم الأوقات الظروف التي تحيط بنا متناسين عن قصد أو غير قصد ما يمسى بـ "تشاركية الأحداث"، وأغلب الظن أنه لولاها لما تمكنا من تحديد وجودنا التاريخي والزمني، ولما تمكنا من معرفة ذواتنا بمعزل عن المتأثرات الخارجية التي نبني عليها معيار قيمة أنفسنا، ربما هذا ما قد نلمسه في أسلوب ومنهج أبي القاسم سعد الله

حين يحاول دراسة الجزائر من زاوية "تشاركية الأحداث" بين تاريخ أوروبا وتاريخ البلدان المستَعمَرة.

فعندما نأخذ على سبيل المثال حديثه عن المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي، فإنّه يحاول أن يعطي لنا تصوّرا مسبقا حول التطّور الفكري الّذي يستغلّه غيرنا في سياسته الاستعمارية، وهو أنّ عهد احتلال الجزائر تصادف مع عهد الحركة الرّومانتيكية الأوروبية الّتي تدّفقت مشاعرا وحبّا في إبراز "الأنا" الذي يقصي الآخر ويجعل نفسه مركز كل شيء[41] فذلك التّبدّل المفاجى في التاريخ الأوروبي الناتج عن تدفق العواطف الإنسانية وشيوع الإيديولوجيات القومية وما صاحبها من إديولوجيات، جعل الغرب يرى في قوميته مُثُلاً عليا يجب أن تُصبَغَ على بقيّة البلدان الأخرى، فتلك القومية سرعان ما أخذت تشق طريقها في الجزائر متجشمة عناء تشكيل القومية العربية التي "ولدتها عمليات التتريك ثم عمليات الغزو الأوروبي"[42].

6- أبو القاسم سعد الله بعيون الآخرين: ليس بوسعنا أكثر من التّخمين إذا حاولنا أن نقدّم وجهة نظرنا حول المنهج التّاريخي الّذي اعتمده أبو القاسم سعد الله، ذلك يعني أن مؤلّفاته احتوت مجموعة من الأفكار والاستنتاجات التّاريخية مرتبطة بنظرته الذّاتية، دون إعطائها الطّابع الموضوعي الّذي هو أساس لخطاب التّاريخي، فعندما نحاول تحليل قراءاته عن الجامعة الإسلامية وما كان لها أو عليها من تأثيرات على "حركة الجزائر الفتاة" أو بصيغة أخرى بداية تشكّل "الحركة الوطنية الجزائرية"، فإنّنا نجد أنّ مؤرّخنا قد تناولها بنوع من الحماس الوطني - حتّى لا نقول "مبالغة"-، فيحاول أن يجعل من الجزائر قطبا فكريا خصبا صالحا لبروز حركات إصلاحية تدعوا إلى تضامن وتوحّد القوميات العربية، وفي نفس السّياق يذكر بأنّ الجزائر كانت تعيش أزمة خانقة نتيجة الاستعمار الفرنسي، وما نتج عنها من فقدان الحرّية الفكرية والصّحافة وحرّية الرّأي ومنع انتشار الأفكار الإصلاحية والتّنويرية، فنحن كدارسين نجد لديه في هذا الموضع نوع من التّناقض التّاريخي، كما يحاول أن يبرز كلّ من "حمدان خوجة" و"الأمير عبد القادر الجزائري" كمصلحين أثّرا بأفكارهما على معاصريهما وعلى توجّهات وإديولوجية الجامعة الإسلامية[43].

ردمد 2170-1636 ISSN / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

كما أنّ أبا القاسم سعد الله كان دائم الرّفض للمركزية المشرقية، وكان يحاول مقابل ذلك إبراز ريادة الجزائر في العديد من القضايا، كاعتقاده بأنّ فكرة "القومية العربية" قد ظهرت في الجزائر على يد حمدان خوجة والأمير عبد القادر الجزائري قبل أن تظهر في المشرق[44]، وفي حديثه عن كتلة المحافظين فإنّنا نجده يعظّم وبشكل لافت للانتباه شخصية إبن الموهوب الّذي يعتبره من عظماء المصلحين في الجزائر بعد حمدان خوجة، بدعوى أنّه استفاد من بقائه في الجزائر وعمل على نشر أفكاره من خلال إقامة الدّروس والاجتماعات ومحاربة الإستعمار فكريا[45]، وما يشدّ انتباهنا هو أنّه قد نُقد في هذا العنصر من قبل تلاميذ ابن باديس، ويصرّح بها أبو القاسم سعد الله في إحالاته معترفا بتلك المبالغة[46]، ولكنّ نظرته لم تتغيّر ربّما لقناعاته بما كان يعتقد.

غير أنّ ما يمكن للباحث أن يلاحظه حول هذا النّوع من الخطابات التّاريخية هو تأثّره بالمناهج التّاريخية للمؤرّخين المشارقة الّذين كان يغلب عليهم طابع الذّاتية والاعتزاز بالوطن[47]، فنجده قد وقع في الأخطاء الّتي كان قد تكلّم عنها في العديد من المناسبات واللّقاءات الخاصة مع الصّحف والمجلاّت، ولا نحاول ها هنا أن نقدّم تبريرات لا غاية منها، بل أردنا أن نوجّه عناية القارئ بأنّ هذا يجب ألاّ يؤخذ بنظرة عكسية سلبية، وأنّ حُكمنَا على مؤرّخنا ليس"حكم إدانة" وإلاّ كانت رؤيتنا رؤية ناقصة؛ بالمقارنة إلى الإنتاج الضّخم وإلمامه بأساليب ومناهج المدارس التّاريخية العالمية.

هل يعكس هذا النّقد الّذي وجّهناه إلى المؤرّخ أبي القاسم سعد الله توجّها خاطئا أو نظّرة استصغارية أو تقزيمية للإنتاج الضّخم الّذي أفاد بها المكتبة الجزائرية؟ بالطّبع يكون الجواب دائما مفاده النّفي والرّفض وعدم الرّضا بالقبول، إذ ما أمكننا أن نقوله في تلك الإشارات الخفيفية، لا تعدو أن تكون سوى تلميحا منّا على أنّ أيّ إنتاج بشري قد تصله زلاّت الأقلام أو لطخات الحبر الّتي تسيل حبّا للوطن الأمّ وتمجيد تراثه وشعبه وتاريخيه –وأبا الله إلاّ ان يكون كتابه كاملا-، ذلك يعني أنّ أبا القاسم سعد الله لا يُلام على تلك الزّلات إن سُمح لنا بتسميتها "زلّة"،كونه الرّجل الّذي يقبل النّقاش ومراجعة الأفكار وتصحيح الأخطاء، حيث أنّه قال في حقّ أولئك

مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9- العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد 2170-1636 ISSN / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- 1156 Depot Légal

الّذين راسلوه كناقدين لبعض المواضيع الصّادرة في الطّبعة الثّانية من كتابه تاريخ الجزائر الثّقافي: "لن أعزف عن ذكر هؤلاء المشايخ والباحثين الّذين قرأوا الكتاب بدقّة، وأرسلوا إليّ بتصحيحات واقتراحات استفدت منها في هذه الطّبعة، واخصّ بالذّكر منهم الشّيخ محمّد الطّاهر التليلي والشّيخ عبد الرّحمان الجيلالي والشيخ محمّد البوعبدلي..."[48].

فبهذا التّوجّه الفكري والمنهج الرّفيع في تذوّق طعم الإنتقادات وإجراء التّصويبات، استطاع أبو القاسم سعد الله أن يمثّل وبكل صراحة أخلاق المؤرّخ الاحترافي، الّذي جعل من حقل الكتابة التّاريخية ضيعة التّجوال والبحث عن الذّات العربية الجزائرية الإسلامية المفقودة، وأخرج العقلية الإبداعية من بدائيتها وظلامها الدّامس إلى رابعة النّهار، وكشف السّتار عن حقيقة المبدع الجزائري والمدرسة التّاريخية العربية بصفة عامة.

الخاتمة: كتقييم لما سبق؛ فإن الأكاديمة العلمية التي نراها اليوم ماثلة أمامنا ومجسدة في كتب ومؤلفات أبي القاسم سعد الله، كانت قد ولدت في حقيقة الأمر سنة 1936م في بيئة تقليدية بمسقط رأسه في جامع قبلي صغير، أين تعلّم أبجديات الخط والكتابة بمنطقة "البدوع" بمسقط رأسه في سن الخامسة من عمره[49]، وهو لا يزال يعتمد على مشاهداته اليومية للواقع التاريخي المعاش آنذلك، ثم إن قساوة الإغتراب المشبعة بنشوة حب المعرفة والعلم قد تحولت إلى فضاء رحب أين تسكن قوى الإلهام والإبداع والتطلع.

فلم تكن رحلته إلى جامع الزيتونة سنة 1930م ومن بعدها إلى كلية دار العلوم بالقاهرة سنة 1955م، ورحلته العلمية إلى جامعة مينيسوتا بأمريكا سنة 1960 لاستكمال دراسته العليا، إلاّ أسلوبا حداثيا نتيجة الفارق الكيفي في تقديم العلم والمعرفة، فمن حلقات الذكر بمسقط رأسه إلى استعمال السبورة بجامع الزيتونة إلى موسعية المعرفة من :"نحو وصرف وفزياء وكمياء ورياضيات"[50]، ودراسة مختلف اللّغات والانفتاح على الكثير من الثقافات" في المراحل التعليمية الأخرى.

وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار المنهج التّاريخي الّذي اعتمده المؤرّخ أبو القاسم سعد الله لم يتّخذ صفة الإنطواء أو الانعزال عن باقي منهاج المدارس التّاريخية

مجلة عصور الجديدة– مصنفة ج- المجلد 9– العدد 3- (نوفمبر) 1441هـ/2019م
ردمد 2170-1636 EISSN 2600–6324 / ISSN / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

المختلفة، أو أنّ التّاريخ الّذي كان يحاول كتابته كان مجرّداً عن باقي العلوم الأخرى، والقارئ أو الدّارس لإنتاجه الفكري يمكن أن يستقرّ على فكرة أنّ هذا المنهج لم يولد فجأة من العدم، أو أنّه ولد بالمرّة دفعة واحدة كما نتذوّقه اليوم بتحليلاته وانتقاداته وتعليقاته وعرضه، فكانت طبيعة مؤلفاته تتحّسن كلّما تقدّمت به خبرته في الكتابة، هذا ما خلق لديه نوع من "الجرأة الفكرية" في معالجة النّقاط السّوداء في تاريخ الجزائر بنوع من الصّرامة والدّقة والموضوعية.

وإذا ما سلمنا بالمسلمة التي تقول بأن الشك والارتياب دائما ما يصاحبان الباحث عن الحقيقة، فإن الغوص في بحور التساؤلات قد جعل أبا القاسم سعد الله في أمس الحاجة أكثر من أي وقت مضى إلى إضفاء أساليب جديدة ومناهج تقتضي منه دمج النقد لمجموع الوثائق الأرشيفية والمعلومات التاريخية التي استقاها منها، بحيث أن الإعتماد الصرف على دراسة الوثيقة وتأملها قد يحيد بالتاريخ عن الحقيقة المطلقة التي يسعى لاكتشافها والتعرف عليها، ومجمل ما وصلنا اليوم من إنتاجاته قد يكون هبة تلك الأساليب الاستثنائية في القراءة والتحليل والنقد، ثم إننا لا يمكن أن نتخيل النقد التاريخي نقدا عرضيا لمجرد النقد كترف فكري على سبيل المثال، بحيث يجعله يتوه في أحكام ذاته النسبية، بل إن البدائل التي يطرحها على بساط البحث والتحليلات قد تُصيِّرُ المواضيع المنتقدة إشكاليات محورية مثيرة للجدل بقدر ما أثارت فضوله وحماسته في البحث.

الهوامش:

1 بشير حمادي، حوار شامل مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله ، جريدة الحقائق الأسبوعية، العدد21، الصّادرة بتاريخ 17 مارس 2007، ج1؛ نقلا عن الموقع الجزائر أون لاين بتاريخ 16 مارس .2015

2 ديورانت ويل، قصّة الحضارة، إعداد وترتيب، محمّد عبد الرّحيم، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1412هـ/1992م، م1، ص3/ سمير مزرعي، فلسفة الحضارة عند ويل ديورانت (1885-1981)، مجلّة حروف للدّراسات التّاريخية، العدد2، نوفمبر 2014، ص97.---3 محمّد بليل، الكتابة التّاريخية عند شيخ المؤرّخين أبو القاسم سعد اله بين لعاطفة الذّاتية والحقيقة التّاريخية، مجلّة عصور الجديدة، جامعة وهران، الجزائر، العدد 13، "ربيع" "أفريل"1435هـ 2014م، صص294-298/ أحمد حداد، سعد الله مؤسّس المدرسة التّاريخية الجزائرية، جريدة الشّروق الجزائرية اليومية، العدد 4236، الأربعاء 22 صفر 1435هـ الموافق لـ 25 ديسمبر 2013 الموافق، ص19.

4 بومدين بوزيد، الإستعمار وزمن الحقيقة قيم الإعتراف والتّواصل مع الآخر، أعمال الملتقى الدّولي حول الإستعمار بين الحقيقة التّاريخية والجدل السّياسي، المركز الوطني للدّراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، طبعة خاصّة، 2007، صص127.---5 مبارك بن محمد الميلي، تاريخ الجزائر في القديم والحديث، دار الغرب الإسلامي، بيوت، لبنان، (د.ت)، ج01، ص31.---6 محمد بن ساعو، مسيرة الكتابة التاريخية في الجزائر بين بين أثقال التقديس ونزعات التسيس وترسبات

ردمد ISSN 2170-1636 / EISSN 2600-6324 / الإيداع القانوني: 2014- Depot Légal 1156

الكولولنيالية، مجلة ذوات، العدد37، مؤسسة "مؤمنون بلا حدود للدراسات والأباحاث"، الرباط، المغرب، 2017، صص28-29.---7 بومدين بوزيد، المرجع السابق، ص127-128.

8 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، الجزائر، ط1، 1996، ج4، ص7.

9- بومدين بوزيد، المرجع السابق، ص128.

10من بين هذه الاتهامات والصّراعات حول إبراز الأدورا الثّورية والوطنية والتّغني بالبطولات ما ورد في إحدى الصّحف الجزائرية من خلال تصريحات المجاهد؛ لخضر بورقعة، "بومدين صفّى كريم بلقاسم وياسف سعدي متورّط في حادثة "لابلويت"، جريدة الشّروق الجزائرية اليومية، العدد 4614، الأحد 20 ربيع الأوّل 1436هـ الموافق لـ 11 جانفي 2015، ص3/ لخضر بورقعة، شاهد على اغتيال الثّورة، تحرير، صادق بخوض، تقديم، الفريق سعد الدّين الشّاذلي، شركة دار الأمّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط2، 2000، صص137-140، 155-158.---11 محمّد بليل، المرجع السّابق، ص288.

12 أبو بكر الصّديق حميدي، قراءة في الإنتاج الفكري للدّكتور سعد الله، مجلّة عصور الجديدة، العدد 13، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1، الجزائر، "ربيع" أفريل"1435هـ/2014م، 258/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار البصائر، الجزائر، طبعة خاصّة، 2007، ج1، صص46-74.

13 يرى فوزي سعد الله بأن عملية التركيب الإنتقائي لتاريخ الجزائري كانت حسب أغراض السلطة...علما بأن الثالوث المتداخل: الدولة- الحزب- الجيش عاقب كل من لم يسر في استراتيجيته وأهدافه بالتهميش والنسيان بما في ذاك القادة الوطنيين الكبار وعلى رأسهم مصالي الحاج وبن خدة وعبد الرحمان فارس وسعد دحلب وكريم بلقاسم ومحمد بوضياف...وغيرهم الذين لم يسلموا من عملية الطمس المنظم رغم ما قدموه للبلاد. فوزي سعد الله، يهود الجزائر هؤلاء المجهولون، شركة دار الأمة، الجزئر، 1996، ص7.

14 محمد زاهي، أبو القاسم سعد الله ومساهمته في الحفظ على لتراث الثقافي الجزائري، مجلة الحوار المتوسطي، العدد7، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ديسمبر 2014، صص81-82.

15 أبو القاسم سعد الله، أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرّخين وقدوة الباحثين (السّيرة الذّاتية والعلمية)، الجزائر، 2007، صص3-12/ بوسليم صالح، رصد بيبليوغرافي لمسيرة الأستاذ أبو القاسم سعد الله، مجلة الحوار المتوسطي، العدد7، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، الجزائر، ديسمبر 2014، صص98-102.

16 أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر، مجلّة الأصالة، وزارة التّعليم الأصلي والشّؤون الدّينية، الجزائر، العدد14-15، 1973، صص11-12/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج1، صص19-22.---17 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع نفسه، صص23-25.

18 De Slane (le baron), rapport adressé à m. le ministre de l'instruction publique, suivi de catalogue des manuscrites arabes les plus importants de la bibliothèque d'alger et la bibliothéque de cid-hammouda à constantine, pp 1-15.

19 ناصر الدّين سعيدوني، ورقات جزائرية (دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني)، دار البصائر، الجزائر، ط2، 2008، ص40.---20 فارس كعوان، الإستشراق الفرنسي والتراث التواتي: قراءة في رحلة عبد القادر بين أبي بكر التواتي بن هيبة الله، دورية كان التّاريخية، العدد12، جوان، 2011، صص42-43.

21 أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسيين، المرجع السّابق، ص14/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السّابق، ج1، ص28.---22 جيلالي صاري، تلمسان والنّخب التّلمسانية ذات الامتداد الوطني، ترجمة، أحمد بن محمّد بكلّي، دار القصبة للنّشر، الجزائر، 2011، صص 117-118.---23 أبو بكر الصّديق حميدي، المرجع السّابق، ص.257

24- حنيفي هلايلي، أبو القاسم سعد الله بين ازدواجية التّأليف والتّرجمة، مجلّة عصور الجديدة، العدد 13، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران1، الجزائر، "ربيع" أفريل"1435هـ-2014م، ص264.---25 المرجع نفسه، 264.

26 بشير حمادي، حوار شامل مع الأستاذ الدكتور أبو القاسم سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية، العدد21، الصّادرة بتاريخ 17 مارس 2007، ج2، نقلا عن الموقع الجزائر أون لاين بتاريخ 16 مارس2015.

27 أبو القاسم سعد الله، منهج الفرنسين، المرجع السّابق، ص19/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء، المرجع السّابق، ج1، صص35-36.---28 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج4، صص7-10.

29 المرجع نفسه، صص47-96.---30 من بين بعض المؤرخين والمختصين الذين تناولوا موضوع تخلف الكتابة التاريخية نذكر كل من: محمد بن ساعو، المرجع السابق، صص27-36/ محمد البشير الإبراهيمي، أثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1997، ج5، صص118-119/ مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، صص31-38/ أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج2، صص7-10.

31 أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثّقافي (1500-1830)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، صص7-445. ---32 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج4، ص9.

33 المرجع نفسه، ص10.---34 أبو القاسم سعد الله، أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرّخين، المرجع السابق، ص1.

35 أبو القاسم سعد الله، من محاضراتي في جامعة أوكلير (ولاية وينسكسن)، حولية المؤرّخ، العدد 11-12، السّداسي الأوّل، صص197-201.---36 جميل موسى النجار، فلسفة التاريخ...مباحث نظرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، 2011، صص17-18.

37 من بين المستشرقين الفرنسيين نذكر ما يأتي: (بوستل، البارون دي ساسي، كاترمير، البارون دي سلان، شربونو). محمد فاروق النبهان، الإستشراق تعريفه، مدارسه، آثاره، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 1443هـ/2012م، الرباط، المملكة المغربية، صص22-26.---38 المرجع نفسه، ص28. ---39 أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، المرجع السابق، ج1، صص 66-68.----40 أبو القاسم سعد الله، خلاصة تاريخ الجزائر (المقاومة والتّحرير 1830-1962)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، صص5-6. ----41 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ج1، صص101-102. ---42 المرجع نفسه، ص101.

43 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، دار البصائر للنّشر والتّوزيع، الجزائر، ط6، 2009، ج2، صص109-110.

44 رابح لونيسي، العوامل المؤثّرة في الخطاب التّاريخي لأبي القاسم سعد الله، مجلّة عصور الجديدة، مختبر تاريخ الجزائر، جامعة وهران، الجزائر، العدد 13، شتاء- ربيع (أفريل) 1435هـ 2014م، صص275-276.---45 أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية، المرجع السّابق، ج2، صص151-159.---46 المرجع نفسه، ص155.-----47 محمّد رحاي، أبو القاسم سعد الله مؤرّخا، مجلّة المستقبل العربي، العدد 431، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، لبنان، كانون الثّاني يناير 2015، صص132-133.

48 أبو بكر الصّديق حميدي، المرجع السّابق، ص251.

49 مصطفى عبيد، النشاط الثوري لأبي القاسم سعد الله، مجلّة عصور الجديدة، العدد 13، جامعة وهران، الجزائر، "ربيع" أفريل"1435هـ 2014م، ص.226

50 مصطفى عبيد، المرجع نفسه، ص،ص226،237/ محمّد بليل، المرجع السابق، ص283/ عبد القادر خليفي، البعد الإسلامي في كتابات أبي القاسم سعد الله، مجلة عصور، المجلد 5، العدد 1، جامعة وهران، الجزائر، 2006، صص48-49.